إدْريس الصّغير

مُحَمّد سَعِيد الرَّيْحَانِي

حِوَارُ جِيلَيْنْ

مجموعة قصصية مشتركة

مَوْقِعُ رَيْحَانِيَات

عـنوان الكتــاب : حوار جيلين

نوع الكتـــــاب : مجموعة قصصية مشتركة

الـمؤلفـــــــان : إدريس الصغير ومحمد سعيد الريحاني

الفهرس

باب إدريس الصغير	
النص الأول: رجل، ورقة... وأحلام	
النص الثاني: في مقهى على ضفة نهر	
النص الثالث: طريق الأحلام	
النص الرابع: نومانز لاند / NO-MAN'S-LAND	
النص الخامس: حقول الأقحوان وشقائق النعمان	
النص السادس: صانع الأحلام	
النص السابع: أحلام طاميزودا	
سيرة ذاتية للقاص إدريس الصغير	
باب محمد سعيد الريحاني	
النص الأول: في رحاب التقنية	
النص الثاني: هَلْ قَرَأتَ يَوْماً عَنِ الأَشْبَاحِ؟	
النص الثالث: الضياع	
النص الرابع: فضاضة القبائل البعيدة؟	
النص الخامس: الاسم "عاطل" والمهنة "بدون"	
النص السادس: الذي كان حرّا	
النص السابع: أحلام الظهيرة	
سيرة ذاتية للقاص محمد سعيد الريحاني	

الباب الأول

باب إدريس الصغير

النصوص القصصية

النص الأول: رجل، ورقة... وأحلام	
النص الثاني: في مقهى على ضفة نهر	
النص الثالث: طريق الأحلام	
النص الرابع: نومانز لاند / **NO-MAN'S-LAND**	
النص الخامس: حقول الأقحوان وشقائق النعمان	
النص السادس: صانع الأحلام	
النص السابع: أحلام طاميزودا	
سيرة ذاتية للقاص إدريس الصغير	

رجل، ورقة... وأحلام

على الرصيف يسير إلى عمله صباحا. صباح مضبب وبارد. يداه في جيبي سرواله، وأنفه أو فمه أو هما معا، يقذفان دفقات من بخار. كذلك كل المارة وجياد أو حمير أو بغال عربات الكارو. لكن بكمية أكبر. تعثرت قدمه اليمنى بنتوء صخري صلب كادت فردة الحذاء أن تتمزق « كادت ان تتمزق طريقة في التعبير لقد تمزقت فعلا » . ألم حاد يخز خمسة أصابع القدم، ولزوجة تسري بين البراجم... الدم! لا شك أنه الدم. سريعا يتجلط ويسود، ليجد في المساء لذة كبيرة في انتزاع جلطات الدم السوداء المتيبسة فوق الجلد.نفس اللذة التي يستشعرها حين ينظف منخري أنفه، أو حين يستخرج شوكة صبار مغروسة في جلد راحته. الاستخراج بمساعدة إبرة خياطة يكون أفضل وألذ. ما علينا. يكمل طريقه. ليس أول حذاء يتمزق،وحتما لن يكون الاخير.وماذا نملك أن نفعل؟ هل نفر من المكاتيب؟ عيناه على الرصيف. لن يتعثر ثانية. تراب وأزبال وسدادات قنينات المشروبات وأعقاب سجائر.

فكرة:

قد يجد حافظة نقود بها مبلغ مالي محترم.او على الأقل ،قد يجد ورقة نقدية مكمشة مداسة يغيب معظمها بين أكوام التراب.قديما كان هذا كثير الحدوث « قديما ،يعني منذ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة . »السكارى عادة ما تسقط منهم أشياء ثمينة، وهم يترنحون ليلا في الدروب المظلمة ناشدين منازلهم. يسكر الواحد منهم في الحانة منفقا بدون حساب وحين يحين موعد الاوبة يعز عليه دفع ثمن سيارة الأجرة فتحدث الكارثة. البدو كذلك تسقط منهم نقود يعقدون عليها عقدة في خرقة بالية وسخة. يحضرون الى المدينة لبيع خضرواتهم فيسير الواحد منهم فوق حماره او عربته فاغرا فمه،يتابع ببلاهة وعجب سيقان الفتيات البضة لابسات الميني جيب والمدخنات في الشارع فتكون كذلك الكارثة. لكن ليس على الرصيف شيء . الناس لم يعودوا يملكون نقودا تسقط منهم، ومن يملك ينتقل في سيارته الخاصة في حمى من الإسقاط ومن النشالين. ليس على الرصيف سوى اوراق رهان الخيل الحمراء والبيضاء الممزقة « الحمراء للثلاثي والبيضاء للرباعي. هنالك كذلك الزرقاء للثنائي. حتما نحن كذلك نعرف هذه الأمور.»

هو، الآن، على مقربة من وكالة الرهان. كل هذه الأوراق خاسرة.حين تعلق النتيجة على السبورة السوداء، يمزق الخاسرون أوراقهم إربا إربا. ثم يبصقون على زجاج واجهة الوكالة.

فكرة:

لو انه يربح؟ ! مئة مليون ! سيكون الأمر جميلا يبني لنفسه سكنا بحديقة ومسبح ولماذا يبنيه؟ هذا يتطلب وقتا. وهو مستعجل .يشتريه جاهزا أحسن. لكنه لا يحسن السباحة. ولو .. يكتري معلم سباحة.قبيحة يكتري هذه. فليقل يوظف. يوظف يتفق أحسن .يتفق مع معلم سباحة يعلمه العوم. وان أغرقه؟ لا لا. هــــذا أمر مستبعد. وماذا سيجني من ذلك غير السجن؟ يجزل له العطاء فيعلمه دون أن يغرقه. والزوجة؟ يطلق هذه البلهاء الشمطاء التي تكدرعليه عيشه. سبابها جارح. تقول له :« هل تظن نفسك رجلا، أيها المفلس؟ » .

لكن مع ذلك فان لها عليه بعض الأيادي البيضاء. فهي تنظف البيت والثياب،وتعنى بالأطفال ورغم ذلك سيطلقها. سيكون شهما. يعطيها مليونا أو مليونين. حتى عشرة. ألم يربح هو مئة ؟

- اسمعي يا بنت الناس. التقينا إخوة، فلنفترق إخوة. خذي هذا الرزق واتركيني لحالي وإن احتجت شيئا، اطلبيه مني.

- نعم الرأي. هذا هو صنيع الرجال.

يتزوج فتاة صغيرة، مثل التي يراها في إشهار « الياورت » في التلفزيون. يطلب أهلها مهرا كبيرا. ولو ... لكن انتظر لم الزواج؟ يعيش حرا أفضل. يقتني في كل يوم واحدة. كيف يقول يقتني؟ ! المهم. في كل يوم واحدة كما يقول الشعر الذي حفظه من صديق:

- فصفراء من الصين وسمراء من الهند

والعمل؟

وصل الآن إلى باب المعمل . كالعادة لم يصل بعد أحد. فقط هنالك الحارس النائم وهو يقتعد كرسيه بالباب يدخل دون ان يوقظه ليحييه. ولم يحييه؟ ! أعور وأعرج.لابد أن يكون طالعه منحوسا لن يعمل بعد اليوم. كفى من تنظيف أرضية المكاتب وتلميع زجاج السيارات، وإحضار القهوة والسجائر للموظفين.بل ونقل وريقات مطوية بينهم وبين الموظفات.تقول زوجته الشمطاء. هذه ليست مهنة، هذه قوادة.

جميل! هكذا إذن؟ طلقناك وطلقنا القوادة. يشتري سيارة. ولم واحدة؟ يشتري سيارتين. لكن هذا إسراف. واحدة فقط، وحين تتقادم يشتري غيرها. لكن،انتظر هنالك مشكلة. حين يربح. يعني حين تعلق الأرقام على السبورة السوداء كما رتبها في ورقته. يكتم الأمر. لن يقول لأحد. يقولون بان الكثيرين يصابون بالحمق من هول المفاجأة. سيتمالك أعصابه، وهو يقف بين المصطفين أمام سبورة الأرقام ويبصق مثلهم على زجاج الواجهة مرددا:

- تفو. ليس لي حظ في هذه اللعبة المشؤومة. يبتعد عن الوكالة وينتظر. حين تخلو من الرواد يتقدم بهدوء الى الشباك.يطل عليه رأس، ويطل هو كذلك عليه برأسه:

- عندي ورقة رابحة.

- أرني.

يأخذها منه. يتفحصها مليا،ثم يغادر كرسيه ويلج مكتبا ثم يغلق من ورائه الباب. يمد هو عنقه من فتحة الشباك. لقد تأخر كثيرا.متى يعود؟ يعود ثم يقعد على كرسيه:

- نعم؟

- أنا صاحب الورقة الرابحة.

- أين هي الورقة؟

- لقد أعطيتها لك.

- لم تعطني شيئا.هل أنت أحمق؟ !

هكذا اذن؟وقديما قال أجدادنا:« لا تامن،لا تستأمن،في بلاد الأمان » .

الاحتياط واجب . ومالنا،قبل أن اذهب إلى الوكالة استنسخ من الورقة صورا عند أصحاب «**الفطوكوبي**» درهم للصورة. الأمر بسيط... يعرف أنني رابح. أغريه بمائة درهم حتى لا يغشني. يأخذ مني الورقة.يقول، انتظر دقيقة الآلة معطلة. سأصلحها فورا. يصعد الدرج الخشبي الى سدة الدكان. هل أصعد معه أم أقول له: "دع الورقة عندي حتى تعود؟" لكن الوقت فات.غاب في السدة. اسمع وقع أقدامه على الأرضية الخشبية. أهي أرضية أم سقف؟ والله ، لست أدري. هو ذا يعود. ينزل الدرج. ليس بيده شيء. نسيها في السدة.

- نعم؟

- صور لي خمس صور من الورقة.

- أين هي الورقة؟

- لقد أعطيتها لك وصعدت بها الى السدة.

- لم تعطني شيئا.هل أنت أحمق؟

- مشكلة، والله. كيف يفعل الرابحون، إذن؟ ومالنا وهذه السرعة. يتريث حتى يهتدي إلى طريقة مأمونة... يترك الورقة في جيبه يوما او يومين.لن تفسد على كل حال. هل هي طماطم حتى تفسد وتتعفن ؟ يسير في الشارع

محاذرا. لن يعبر الطريق حتى يتأكد من خلوها.سيارة طائشة او حتى دراجة نارية او عادية قد تضيع كل شيء. يتحاشى السير تحت أعمدة الكهرباء. أسلاكها المتساقطة،لا تقتل الإنسان فقط ،بل تحيله إلى رماد هو وورقته. حتى السير بمحاذاة حيطان العمارات خطر. قد تنهدم عمارة منها... لا يحلو لها أن تنهدم إلا حين يكون هو تحتها. مشكلة والله. أين يسير إذن؟

الآن، انتهى من تنظيف المكاتب والردهات، ووصل إلى الدرج الرئيسي. آخر مرحلة في التنظيف لو انه يسقط؟ كثيرا ما حدث له هذا في هذا المكان اللعين.تزل قدمه، وتتخبط قفاه على حافة المرقاة يصيح،لا احد موجود.يخف إليه الحارس الأعور مجرجرا رجله العرجاء. يتبين وجهه من خلال ضباب يغلف مقلتيه. شفتا الأعور تتمتمان . يسمعه... يقول له،تذكر الشهادة... قل اشهد أن لا اله إلا الله. هكذا، ابن الكلب !لم يفكر سوى في الموت.

يجيبه بصعوبة خذ الورقة التي في جيبي وسلمها لأولادي. أنها تساوي مئة مليون. يطمئنه،ويربت على كتفه ووجنتيه.يطويها ويضعها في حافظة نقوده.لكن ابن الكلب لا يسلمها للأولاد. يستأثر بها لنفسه،ولا يعود بعد حارسا.

الأسلم أن يترك الورقة في المنزل. تجدها الزوجة البلهاء صدفة فلا تعرف قيمتها وتمزقها..تمزقها؟ أنت واهم. بلهاء، لكنها تعرف رهان الخيل وحتى تكون سيء الحظ فستجهل هذه البلهاء كل شيء إلا الإجراءات السليمة لصرف المقدار المربوح تلبس جلبابها وتضع لثامها وتجر أولادها من ورائها. ترجع أنت في المساء متعبا. تطرق الباب مرات فلا تجاب.حتى المفتاح نسيت أن تحمله معك اليوم. تركت لك خبرا عند الجيران:

«إذا حضر في المساء... قولوا له: إن اهتديت إلى مكاني أيها القرد الهرم فافعل بي ما تشاء ».

في مقهى على ضفة نهر

من خلال زجاجة واجهة المقهى، يرى النهر يتحوى في استدارته الثعبانية، حتى ليكاد يخلق جزيرة صغيرة، تتناثر فوق عشبها الأخضر بضعة أكواخ من الخشب والزنك، وقطعان غنم متعبة، ودجاجات تائهة.

خارج محيط دائرة الجزيرة، وعلى الضفة الأخرى للنهر تصطف عمارات المدينة ومقاهيها وحاناتها ومراكز الشرطة. وعلى ربوة عالية ينتصب جدار السجن عاليا باردا مخيفا ببرج مراقبته الزجاجي، ذي الشكل الاسطواني ينبت في وسطه حارس مسلح بقبعته السوداء وعينيه الزائغتين. اليوم ضبابي بارد، وفوق مياه النهر الرصاصية تلهو طيور بيضاء متوسطة الحجم، فتفرج أجنحتها وتنزلق بليونة في الهواء.

عبثا حاول أن يتذكر اسم هذا النهر. جاهد. أطرق برأسه، وعصر ذهنه مرات دون جدوى. لم يتذكر اسم السجن ولا حتى اسم المدينة. وتيقن الآن فعلا أنه شاخ قبل الأوان، وأنه لم يعد سوى كتلة لحم متيبس تكسو عظاما نخرة، يجلس كل يوم ببلادة وبلاهة إلى قهوة سوداء باردة مرة، أو إلى كأس نبيذ لاذع الطعم.

لم يرد أن يسأل النادل، فمثل هذه الأسئلة تثير الشكوك والاستغراب، وحتى الاستهزاء. خصوصا أنه تعود قضاء يومه في هذه المقهى منذ مدة ليست باليسيرة.

مرة سأل فتاة تعمل في إحدى الحانات: لمن تلك اللوحة المعلقة على الحائط؟

فأجابته: لزوج أمك.

وضحكت، فضحك منه كل السكارى، وخبطوا بأيديهم فوق الكونتوار، ففاضت كؤوسهم حتى غرق في خجله.

فكر أن يذهب بعد خروجه من المقهى إلى باب السجن، حيث لا بد أن يجد الاسم مكتوبا بخط بارز أنيق فوق الدفتين الحديديتين الموصدتين، ثم يبحث عن مدخل المدينة أو مخرجها ليكتشف اسمها مرقوما فوق العلامة التي تنبه السائقين إلى وجوب لزوم مقوداتهم سرعة الأربعين. أما الأنهار، فلا يعلم إن كانوا يثبتون أسماءها على إحدى الضفتين أم...

غير أنه لم يكن متأكدا من أنه سيفعل ذلك. فكثيرة هي الأمور التي يعزم على تنفيذها دون أن يقوى على ذلك. في كل يوم على شاشة التلفزيون يرى الرصاص الملعلع والأجساد المدماة والمدن المهدومة، والأطفال الباكين.في كل يوم يرى أناسا يحملون بقية متاعهم فوق رؤوسهم ويهرولون فزعين من لهيب متأجج. ثم يرى مغنيات أنيقات، وراقصات مكتنزات الأرداف، ووزراء ببطون مكورة، يتحدثون بهدوء، مبتسمين أمام كاميرات المصورين فلا يفقه شيئا. وحين يطفئ النور، ويدثر جسده بلحافه يرى أنه يسقط في بئر لا قرار لها. في كل ليلة يقع في البئر ذاتها، لكنه لم ينخبط يوما على أرضية قرارها. فقط يظل هاويا بسرعة و الريح تعبث بشعر رأسه وياقتي قميصه، وتصفر في طبلتي أذنيه إلى أن يستيقظ.

مرة وهو يهوي كان يضاجع امرأة. اتخذا أوضاعا متباينة. مرة تكون فوقه، ومرة يكون فوقها. تارة يهويان عموديا وأخرى أفقيا. يتباعدان ثم يتدانيان. يفترقان ويلتصقان. امرأة سمراء رشيقة القوام. كانت تبكي وتلهث. تتألم وتلتذ.

وهو؟ !

أمام القهوة السوداء المرة الباردة والدخينة النتنة، وجرائد لا تقول شيئا، وبين رواد بديني الأجسام يغازلون فتيات صغيرات يطلين وجوههن بالأصباغ ليضحكن ويدخن السجائر بشراهة.

على رصيف الميناء تربض البواخر صدئة تفرغ حمولتها بصبر، وصياد عجوز يلهو بإلقاء شبكته وسحبها باستسلام. وحين تمطر السماء تعصف شآبيبها ورياحها بعمال يثبتون قضيبي سكة الحديد عند مدخل الميناء، فيضعون القبعات على رؤوسهم، ويحشون أكفهم في القفازات ثم يستمرون في الشغل بهمة.

تكونت للنهر الآن مويجات ترقص قوارب الصيادين المهترئة، وتعابث الضفتين المفروشتين بالطمي اللزج. تذكر أنه حين كان فتى يافعا عريض الصدر، عبر النهر ببراعة سباح ماهر.صارع التيار والأمواج فقط ليرى حبيبته التي كانت تنتظره هناك ليحضنها ويقبلها، فتطمئن بعد خوف. لربما كان النيل أو دجلة أو بردى، ولربما كان سبو... في المدرسة الابتدائية كان بارعا في رسم الأنهار على الخرائط. كثيرا ما أبدى أستاذ الجغرافية إعجابه بذلك. وكثيرا ما أوقفه أمام اللوح الخشبي الأسود المهيب ليرسم.

انتبهوا جيدا، وتابعوا هذا الفتى وهو يرسم. تعلموا منه.

لكنه كان دائما يبدأ الرسم منطلقا من الشاطئ نحو المنبع. لا يصدق لحد الآن برغم كبره أن الأنهار هي التي تصب في البحار وليس العكس. لكن كثيرا من الحقائق تبدو غير قابلة للتصديق في زمننا الكابي هذا.

هذا الفتى سيكون له شأن في المستقبل.

ومات أستاذ الجغرافية أمام تلاميذه وهو يميز لهم بين أضخم نهر في العالم وبين أطول نهر. العمر لم يمهله حتى يرى شأن الفتى في المستقبل. ألسنا الآن في المستقبل.؟ ! هذه الكلمة الغامضة السرابية المنزلقة من بين أصابع اليدين كانزلاق الماء على راحتي متوضئ، شيخ قانت.

الفعل المضارع هو ما دل على الزمن الحاضر والمستقبل.

أليس هكذا علمونا قواعد اللغة العربية في المدرسة الابتدائية، وجذبوا آذاننا الطويلة ونحن نستظهرها؟

وإن شئت المستقبل القريب استعملت السين: مثال. سنصبح أمة متقدمة.

وإن شئت المستقبل البعيد استعملت سوف: مثال. سوف نصبح أمة متقدمة.

وقس على هذا.

توقفت الأمطار وهدأت الرياح، ثم نزل الظلام فأضيئت الشوارع والمقاهي والعمارات وبواخر الميناء. انسحب عمال السكة الحديدية والصياد العجوز، وأعلنت مذيعة التلفزيون عن برنامج الليلة. غادر معظم الرواد المقهى يخاصرون فتياتهم الصغيرات. انشغل النادل بتنظيف الطاولات وجمع الكؤوس وإفراغ المنافض. كاد أن يسأله لكنه لم يفعل.

طريق الأحلام

سأذكر ما حييت ذلك الطريق الواصل بين البيت وبناية السجن المركزي، طريق أحفظه الآن خطوة خطوة، وأتذكر بدقة تغير معالمه، قطعة قطعة، طريق له طعم خاص، رائحة متميزة، وأنت ذاهب نحو السجن صباحا، يكون النهر على يمينك ساكنا، تجوس صفحة مائه الرصاصية، قوارب الصيد الخشبية المهترئة، وتكون الشمس وراء ظهرك تجاهد لتتوسط صفحة السماء الزرقاء صيفا، متأهبة، لإرسال سياط لهيبها على البنايات والأجساد والنبات، ثم يقاطعك قطار شحن بخاري، يسير منهوكا صائحا، ينوء بحمل أكوام الجرائد والمجلات، يتسرب من باب الميناء، تحت نظرات، رجال الجمارك المتجهمين. يتلصص الصبيان، على انتشال، أكوام من الأوراق، بحثا عن صور نساء عاريات، صليل العجلات، يسحق قطع الحجارة، التي صفها الأطفال فوق سكة الحديد، بعناية منتظرين تهشمها، مهللين بتحولها إلى دقيق، يفتتون جزئياته، بأصابعهم الطرية، ثم يطلقون سيقانهم للريح مغتبطين.

وعلى يسارك، تكون الدور والعمارات والمؤسسات، تنبت الواحدة تلو الأخرى، دون تنسيق، تبدأ حفرا طويلة متقاطعة، تملأ حجارة واسمنتا وحديدا، ثم تعلو حيطان الآجر الأحمر، لتطلى بطلاءات متباينة الألوان، ثم لا نعرف بعد ذلك ماذا يحدث بالداخل. لم يكن للشارع طوار، ولم تكن تصطف على جانبيه أشجار. غير أنهم كانوا في كل مرة، يوسعون عرضه. فيضطرون لقطع الشجيرات ثم يعودون إلى زرع أخرى، على بعد متر أو مترين من موقع الأولى.

أكون منهكا حين أصل السجن، فأحشر جسدي وسط الأجساد لأشتم رائحة آباطها، وخلوف أفواهها. أنصت إلى الثرثرات، والبكاء، والنزاعات والهمسات والتوعدات. تحييني الوجوه التي أصبحت أعرفها. وأصافح أناسا. لأبدأ معهم تعارفا جديدا.

وككل مرة، أجد أنني نسيت كل الكلام الذي حضرته بعناية. لأحدثه به. غير أنه في كل مرة يكون أكثر صفاء ذهن، فيحدثني بمعنويات مرتفعة، أستغرب كيف، يمتلكها، بينما أظل أنا صامتا، منخور الدماغ. سألني عن قطته المدللة، فأخبرته بأنها بخير، وأن الكل يعتني بها كما كان يفعل، إذ لم أتجرأ على أن أخبره، بأنها تاهت فلم تعد للبيت أو لربما تكون قد ماتت، تحت عجلة سيارة. حدست بأنه لم يصدقني. وحدست كذلك أنه لا يصدق من كلامي أي شيء. غير أنني كنت أستلذ دوما نبرات صوته، الجذابة، وطريقة نطقه حرف الراء،واكتشفت مع طول المدة ندبا بريئا على ظهر جفن عينه اليمنى، خمنت أنه أثر لخياطة طبية، لا يظهر حين يكون فاتحا مقلتيه، لكنك تتبينه حتما إذا أسدل الجفن على عينه اليمنى، مخلصا إياها من ألم بعوضة تائهة تسبح في ماء المقلة أو ماسحا دمعة، ذليلة من خلائقها الكبر. لاحظت كذلك أن الشيب بدأ يغزو برفق فوديه، وأن ملامح وجهه الحليق، اكتسبت وسامة محببة. كان يملك ترتيبا دقيقا لأفكاره، وهو يصوغها دون تكلف، بلغة تصلح لأن تكتب فتخلد، بدل أن تستهلك في حديث يومي، لتذهب أدراج الرياح. كان رزينا، وكنت نزقا. أفكر في معالم الطريق المتغيرة دوما. مستحضرا حالتها، حين تتهاطل عليها شآبيب الأمطار، وتتراكم على أديمها الأوحال وبرك المياه. أو حين تعلوها الأتربة، حتى إذا هبت عليها الرياح، أثارت النقع فوق رؤوس المارة، وهياكل السيارات، فأقفل الناس نوافذهم، وتلاعب الأطفال وسط لجة الغبار مهللين صائحين. أدركت أخيرا أنني رجل أخرق، حلم طيلة عمره بامرأة، لم يكن لها وجود إلا في مخيلته، وبمدينة بناها لبنة لبنة، وشيد مدارسها ومسارحها، ونظم حدائقها، فانهارت بسرعة الضوء، في غفلة عنه، وانشق أديم الأرض ليبتلعها، فتصبح أثرا بعد عين. لكن. أين سيتوجه الآن؟

من وراء السجن. هناك النهر. ومن وراء النهر هناك البحر، ستفضل لك ستة بحار.

وفي البدء هذه المرة، لم تكن الكلمة، بل كانت الخطوة.

خطا الخطوة الأولى، ثم ثلثها الثانية و الثالثة، ثم تتالت الخطوات حتى أصبحت منتظمة، فكان السير، ثم الإنسراب من الباب الحديدي الضخم البارد، لينقذف في الشارع الفسيح الزاعق بأصوات الخلق، وهدير المحركات. يكون النهر الآن على يسارك هادئا رصاصيا، باردا، وتكون الشمس الآن وراء ظهرك تجاهد لتغرب ضخمة، كما لم تكن صباحا. ويتقاطع معك، القطار، وقد خلت عرباته الصدئة، يؤوب أكثر خفة، وأقل عناءا تشيعه عيون الجمركيين منهمكين، وعلى يمينك تربض البنايات، متأهبة، لتتلفع، بستار الظلام البهيم، تجاهد لمقاومته، مصابيح صفراء كابية

نومانزلاند

NO-MAN'S-LAND

لم تفضل له سوى عيبة جلدية صغيرة سوداء ممزقة. هكذا رآها مكومة بين قدميه التائهتين المرتعشتين الغريبتين، فوق ترى الطوار الضيق المترب. لم يكن بها سوى فرشاة أسنان وقطعة صابون وملابس داخلية، وبطاقة هوية.

رفع بصره بعينيه الدامعتين، يتأمل أكوام الرماد، الخامد وخيوط الدخان الرفيعة المتصاعدة منه نحو السماء باحتضار، وسط جلبة أصوات الجمع، وهمهماتهم، خليط من مواساة وتشف، وشفقة. لم يكن راغبا أبدا في أن يتفرس في الوجوه ولا أن ينبس ببنت شفة، كان راغبا عن كل شيء، ولم يكن راغبا في أي شيء. أنه تحصيل حاصل. غير أنه كان دائما يستغرب هذه الحالة الشاذة. هذه اللحظة البيضاء، التي تمسي فيها كل الأشياء، بدون طعم وبدون رائحة، هكذا حتى بدون أبعاد. لا حجم لها بتاتا. أهي أطياف...

ثم أنه الآن يحار، أييمم نحو الشمال أم نحو الجنوب أم نحو الشرق أم نحو الغرب. لا يدري. ضاقت به الأرض بما رحبت. أم تراه يعلو في فضاء السماء الفسيح، متخلصا من الجاذبية. مسافرا بين الأقمار والأجرام، متنقلا بين المجرات، فلا شرطة تكبسه، ولا مخبرين يتشممون آثار أقدامه، ولا دائنين. يتعقبون سحنته المتجهمة.

آه من الديون.
ثم لا خيانة.
آه من الخيانة.

أم ترى من الأفضل له أن ينغرس في الأرض، مخترقا طبقاتها الصخرية، نحو المركز الذي مازال لحد الآن، ومنذ بدء الخلق ملتهبا، يعج بالحمم المحرقة.

فكر في أنه كغيره من المخلوقات لا بد أن ينتهي إلى حفرة باردة مظلمة ضيقة. لكن قبل ذلك عليه أن يسير.

إلى أين يسير؟ !

سار بتوأدة والعيبة تحت إبطه، سار مغمض العينين. غير أنه كان يرى كل شيء أكثر جلاء من ذي قبل. الطرقات والمحلات التجارية والعمارات و السيارات المارقة، والناس الذين يغدون ويروحون ويتكلمون ويزمجرون ويضحكون، كل شيء جلي وواضح. هذا هو البيت الذي ولد فيه، منذ نصف قرن، وقد تحول الآن إلى مخفر للشرطة، وهذه هي المدرسة التي تعلم بها، حيث صفع المعلمون وجنتيه، وجذبوا أذنيه، ووضعوا قدميه في الفلق، وطرقوا أطراف بنانه بالمسطرة الحديدية التي تكلم الأظافر وتدميها في أيام القر الثلجية، ليس لك الآن سوى عيبة جلدية صغيرة سوداء ممزقة.

ليس لك شبر أرض. أو كوخ يأويك.
لا أهل، لا رفاق، لا أصحاب.
لا زوجة، لا أولاد.

فقط مرارة الخيانة، تقطع أحشاءك، بموسى حادة مسمومة. حتى ضاقت بك الأرض بما رحبت. تأبط عيبتك، ولملم أحزانك، ثم انصرف قبل فوات الأوان.

حقول الأقحوان وشقائق النعمان

هي !

الآن، تتذكر جيدا. تستعيد الصورة بالكثير من التفاصيل. كنت واقفا على الطوار، أمام دكانة البقالة ساهما متأملا انعكاس دفقة شمس الأصيل على الحائط الذي بازائك على الطوار الآخر، حيث يلهو صبية بكرة صغيرة، يتقاذفونها بأقدامهم، وهم يتضاحكون. هنا منذ سنوات موغلة في القدم بجسمك الصغير وشعرك الأشعث تقاذفت الكرة مع الأتراب و صحت حتى بح صوتك. عيناك شاردتان و الخدر يسري طيعا في أوصالك الساكنة.

هي !

أنت لم تدرك ذلك أول الأمر. هزة خفيفة من يدها على مرفق يدك اليمنى ثم طبطبة على الكتف. وحين التفت، استقبلك وجهها مبتسما طافحا بالبشر. أنكرتها غير أنك بادلتها التحية و أشرق وجهك بابتسامة مرحبة. من تكون؟

امرأة تعرفني؟ زميلة دراسة قديمة؟ أم تكون ...؟

بسمتها تزداد ألفة و حنانا. العوارض المجلوة البيضاء الناصعة و العينان البراقتان و تصفية الشعر. تشبه "رومي شنايدر".

عيناك تدوران في محجريهما و كأنما دوامة تلولب رأسك ليتدحرج اربعين سنة إلى الوراء.

ميم. رومي شنايدر .

هي بالتأكيد هي. لم يفعل الزمن بها شيئا يذكر غير بدانة طفيفة ورزانة عمر رغم الوجه الطفولي.

هي !

كيف عرفتك... أربعون سنة لم يفضل من ذلك الفتى الغر سوى ركام يتحرك بين أجساد الخلق و زعيق السيارات. يتأمل ما يحدث بحياد و برود.

قالت مستغربة بالفرنسية:

- غير ممكن.

الآن سكنت الدوامة ،و كف دكان البقالة عن الدوران. نبرات صوتها لم تتغير. رجعت أربعين سنة إلى الوراء رائحتها لم تتغير وقوامها ممشوق وقامتها اقصر منك.آه شفتاها. كان لابد أن تنحني. طعم القبلة الأولى. بوجل، ودون سابق تجربة. آه من حلاوة رضاب الشفتين تحت شجرة سنديان.

نعم، هي. ميم... رومي شنايدر.

قالت، بالفرنسية كذلك:

- لقد هزلت كثيرا. أووف.

هو نفس التأفف الذي ترسله شفتاها المزمومتان، كما كان منذ أربعين سنة خلت، بلكنة باريزية. أين أنا من باريس !؟

هل هو إشفاق على حالك أم حنين للأيام الخوالي؟ ما الذي أوقفك أمام دكان البقالة؟ وما الذي أتى بها إلى هذا الزقاق في هذه اللحظة بالذات؟ لماذا لم تكمل طرقها؟ وتصد وجهها عن ركام العظام المتهالكة، التي عبث بها الزمن والأقدار ومقالب الجهلة والسياسيين والسماسرة ورجال المخزن.

قالت بالعربية:

- كيف حال أسرتك؟

قلت:

- بخير.

كلامك مقتضب وزخم الأفكار مربك وجيشان العواطف يعمر القلب. أربعون سنة. أنت لا تدرين شيئا. كلهم ماتوا وواراهم التراب،منذ أمد بعيد، ولم يفضل لك سوى ثلة صغيرة من الأصدقاء، وسط حشد من المخلوقات،تحس ان علاقة لك بهم.

أنت لا تدرين شيئا. . هكذا استطيع الآن أن أضع العالم ،كل العالم، في كفة، وأضعك أنت في كفة.غير أن هذا الأمر غير مفهوم الآن. وحدهم أصدقاؤك يفهمونه. أية صدفة هاته. أمس فقط رقصت صحبة صديقيك حتى الفجر كما لم ترقص منذ سنوات طوال. غنيت أغانيك القديمة. كنت جذلا فرحا وخيل إليك أنك تطير بجناحين سحريين، فوق أرض الله الواسعة، حيث يتقاتل البشر، دون ما سبب معقول.

هممت ان تتكلم،فقلت بارتباك:

- أنا...

قاطعتك بحسم:

- أعرف. أعرف.

لست متأكدا إن كانت فعلا تعرف، ما الذي شرعت في قوله، ولم تعد أنت نفسك تتذكر.ما الذي كنت ستقوله. غير أنها مضت في ابتسامتها الساحرة، فعبق المكان بشذى الأقحوان. آه من شذاه.

هي ذي حقول القمح تمتد مترامية الأطراف، تزينها شقائق النعمان الحمراء. هل أطاردك الآن، حتى يأخذ منا التعب مأخذه؟ هل نقرفص تحت فزاعة لنسرق القبل بعيدا عن أعين الرقباء؟ هل أنت هي أنت،وهل أنا هو أنا؟

لعلها كانت تريد لهذا الحديث الصامت أن يستمر إلى ما لا نهاية. غير أنك مددت لها يدك، فقط لتشد على كفها الصغيرة باصابعك المعروقة.

وليت وجهك دونها، وأرسلت قدميك على غير هدى ...

صانع الأحلام

استمع المواطن إلى نشرة الأخبار الزوالية، على شاشة التلفزة الملونة التي بها خلل مدة تزيد على الشهر. لم يستطع لحد الآن إصلاحه، فمرة تظهر الصورة واضحة بدون صوت،ومرة أخرى يجلجل الصوت وحده في فضاء الغرفة دون صورة وثالثة يغيبان معا، فيضطر إلى الربت على هيكل الجهاز،ثم الخبط بانفعال، فيستجيب حينا، ويعصى أحيانا.

تحدثت المذيعة الجميلة عن كوارث طبيعية تقع في كل بقاع العالم، ووصفت حالة أناس تجرف أجسامهم وأثاثهم وبهائمهم سيول المياه الرصاصية المائجة وآخرين يفرون من ألسنة النيران الراقصة في الهواء وثلة أخرى وقد تداعت أجسادها منهكة تجاهد لفتح أفواهها طلبا لما تسد به الرمق. ثم ظهرت صور لدبابات ورجال مسلحين يطاردون رجالا ونساء واطفالا يطير بهم الخوف طيرانا. تلت ذلك أخبار عن رؤساء ووزراء يحيون بعض الواقفين وهم يبتسمون ثم ينبرون لإلقاء خطبهم، وسط عواصف التصفيق ووميض آلات التصوير. ثم رأى المواطن لقطات للاعبين يسجلون إصابات في المرمى، ثم يتقافزون كالقردة ملوحين بأياديهم نحو الجماهير الهائجة، ولقطات عن امرأة مسنة ما زالت تحتفظ بجمالها واناقتها تمتلك قصورا ومعامل وضيعات وأرصدة في أبناك متعددة إلا أنها تشعر بالوحدة،لأنها لم تجد رجلا وفيا يحبها لذاتها لا لمالها، لهذا أصبحت تفكر في الانتحار. ولما بدأت مذيعة أخرى مبتسمة كذلك وجميلة تعلن عن حالة الطقس المنتظرة، ومن ورائها خريطة، كان المواطن قد بدأ يغفو.

في بداية إغفاءة المواطن، كان ما يزال يحتفظ ببعض طزاجة ذهنه والقدرة على تسيير خواطره. فكر في أنه لو استسلم إلى التداعيات العادية، لابد أن ينتهي به الأمر ككل مرة إلى الانغماس في أتون كوابيسه المرعبة. لذلك، فكر أن يكون هذه المرة أذكى، فشرع في صنع حلمه بنفسه، اتصل بدار الإذاعة والتلفزيون شخصيا. سأل بالباب عن مذيعة نشرة أخبار الزوال. طلبوا منه بطاقة هويته واحتفظوا بها إلى حين خروجه، ثم الصقوا بصدره « **بادج**» ودلوه على مكتب بالطابق الأول. وجد المذيعة ذاتها،غير أنها لم تكن مبتسمة ، كانت وكانها تقوم لتوها من نوم عميق، قال لها:

- أريد عنوان السيدة المعذبة التي أذعت عنها خبرا في نشرة الزوال، والتي أضنتها الوحدة فبدأت تفكر في الانتحار.

نظرت إليه نظرة مريبة، وخال أنها تبتسم في عمقها، رغم أن لا شيء ارتسم على صفحة وجهها الذي بدا الآن أكثر يقظة. قالت له:
- أنا لا أملك عناوين، اقرأ الأخبار فقط.

دلته على قسم التحرير، ومنه صعد إلى مكتب رئيس التحرير، ثم إلى مكتب المدير.

ولما غادر مبنى الإذاعة والتلفزة، بعد أن رد لهم« البادج » وردوا له بطاقة هويته، كان قد أجاب دون أن ينتبه إلى مئات الأسئلة المتعلقة بحياته الخاصة والعامة،منذ ولد و الى ان قوس الزمان ظهره،ووخط الشيب فوديه.

أحس في الطريق، وهو يسير، أن شخصا يتبعه غير أنه قال في نفسه: لربما كنت واهما فلم يعد هذا الأسلوب شائعا ثم أني لا أمتلك عجينا في بطني. سأل شرطي مرور عن السفارة، وهناك سألوه إن كان يريد تقديم طلب للحصول على التأشيرة. شرح لهم الأمر فأحالوه على القسم الصحفي ومنه إلى الملحق الصحفي .
هذا فأل خير .

كانت امرأة، وقال في نفسه كذلك ،كاذب من قال بأن الدنيا تخلو من الحظ . لقد درست حتى طاب قلبي ونلت شهادات لكني لم أحصل على وظيفة تليق بالمقام ، تجلسني على مكتب وتير، وتمنحني سكني و سيارة مصلحة واعتبارا بين الناس. كانت المرأة تتحدث بالعربية و تدخن بنشوة، و تستفسر بما يشبه الاستغراب الصادق، ثم أخيرا مكنته من العنوان.

استفاق المواطن من نومه فوجد أن جهاز التلفزيون مازال مشتعلا، و مذيع نحيف الجسد يقرأ نشرة الأخبار المسائية بانفعال.

كتب لها رسالة طيلة الليل، استحضر كل ما تعلمه من اللغة الأجنبية و استعان بالقواميس وكتب الرسائل، و انتهت الرسالة في حلتها الأخيرة مع انفلاق الفجر ثم كان أول من دخل مكتب البريد صباحا، ليلفظه نحو المقهى، يشرب قهوته السوداء و يمص دخينته التبنية .

سيسدد في البادية كل ديونه... من استلفت منه مئة أرجع له ألفا، سينتقم من كل الذين آذوه، أو من بعضهم على الأقل، لنقل بأنهم عشرة، بينهم ثلاث نساء. واحدة...أوفلنترك ذلك الجمل باركا.

لن يجوع بعد اليوم و لن يعرى، و لن-يخاف من القايد و لا من عميد الشرطة. سيصبح من الأعيان، وسينادونه، في حله و ترحاله بالحاج، و سيفطر بالدار البيضاء و يتغذى في باريس، ويتعشى في القاهرة. سيشتري يختا، وليأت بعد ذلك الموت، كما يقول دائما صديقه مصطفى بو لعراس .

عاد الى البيت، استمع بإمعان إلى نشرة الأخبار الزوالية، و بانتهائها، بدأ يغفو، فسارع الى صنع حلمه بنفسه، قبل أن تغدر به التداعيات العادية التي تقوده حتما إلى كوابيسه المرعبة .

بعد شهر أتاه الرد منها. عرف بان اسمها فرانسواز، خطها يشبه خط معلمة الفرنسية التي درسته ثلاث سنوات متتالية، قالت له، أين كنت تختفي كل هذه السنوات الطوال التي ظللت أبحث فيها عنك ؟ حتى قادني اليأس إلى التفكير في الانتحار؟ لكنها إرادة الرب. احضر حالا فأنا لا أستطيع الانتظار بعد. أحبك .

مع الرسالة ورقة توجهه الى وكالة الأسفار لسحب بطاقة الطائرة و إلى بنك ليستلم مقدارا ماليا .

كان مستعجلا، فلم يخط بدلته عند أشهر خياط بالمدينة، بل اشتراها من محل بيع بدلات جاهزة. و مع البدلة جوارب و قمصانا و ثيابا داخلية و حذاء و ساعة يدوية، و بايبا.

نعم بايب، مثل ذلك الذي يستعمله الدكتور النفساني في قصة **"ذلك الشيء"** للكاتب أحمد بوزفور .

كان الآن هو والدكتور كلاهما يدخنان البايب في العيادة. هو مضطجع و الدكتور بمحاذاته يجلس على كرسي. قال الدكتور:
-هكذا إذن بدأت أنت كذلك تدخن البايب، ثم بدأت تصنع أحلامك بنفسك، أنت ذكي، وهذا يتعبني كثيرا .

أجاب بفتور .
- لست متأكدا ان كان الدكتور في القصة هو صاحب البايب أم المريض .

ضحك الدكتور،ثم قال مطمئنا :
-لكي تتأكد ارجع إلى القصة مرة ثانية. ما يهمني الآن هو أن أنصت إليك و أنت تتحدث ا لي .

كان قد بدأ يغفو، وقبل أن يستسلم لتداعياته العادية، شرع في صنع حلمه .

أحلام طاميزودا

حتى بعد مرور كل هذه السنوات الطوال ، مازال يتذكر كل شيء، وبكل التفاصيل الدقيقة، زرقة سماء ذلك اليوم الربيعي، ونسمة أصيله الرقيقة، وعبق شذا أقحوانه الغض ، وزقزقة طيوره الجذلى، وهفهفة القلب الأخضر.

هكذا، ما أن التقت العين بالعين، حتى كان ما كان. تصاعد وجيب القلب وخفق الوجدان، وسرت القشعريرة، من قمة الرأس إلى أخمص القدمين. هل يكون سهم **كيوبيد** قد أصابك اليوم؟

قامة قصيرة، وعينان متوهجتان، وبسمة، تشع من الوجه الدائري، الذي تنسدل على جانبيه، خصلات شعر يتلاعب بها النسيم. هكذا رآها، جميلة في البهاء. هكذا رآها، تشبه « **رومي شنايدر**» في بسمتها.

نفس حمرة خجلها، نفس انكسار المقلتين، ودلال الكلمات المنبجسة، من بين الشفتين، القرمزيتين. ها هو ذا يهمس، بالمفردات الأولى، يقدم رجلا، ويؤخر أخرى، يتلعثم قليلا، يتحشرج الصوت في حلقه، تحمر وجنتاه، كلمات مرعوشة، تقابلها ابتسامة رضى و قبول.

هل تعلمين كم مضى من السنوات الآن، هل تدركين كم شهرا، وكم ليلة، و كم ساعة، وكم دقيقة؟ أين كل تلك العواطف الجياشة؟ أين الأشعار، والألحان، والسهاد، والشوق، والألم، والفرحة؟ أين المدى المنبسط المعشوشب الذي طالما تماسكنا باليدين لنجري على ثراه ، نسقط تارة ، وننهض أخرى تحت أشعة الشمس اللاهبة؟ أين البسمات؟ أين الفرح الطفولي ؟... أما زلت تذكرين طاميزودا؟

كانت اللقاءات هنالك، في خلوة عن العالم، عن كل العالم. بعيدا عن الحروب، وعن الدمار وعن الدسائس وعن كل المخلوقات. ترى لماذا اخترنا بالضبط. ذلك المكان. الم يكن الرومان يشقون عباب نهر سبو بسفنهم المحملة بالمؤونة ليرسوا بها في طاميزودا؟ الم يحبوا هنا؟ ألم يحترقوا بلظى الأشواق، و طول النأي، و المعاناة المؤلمة لهذا الحب الأزلي؟

أين أنت الآن ؟ الآن أرى جسدك مسجى على المحمل ، مغسولا ، بعطر الجنان . أراك محمولة فوق الأكتاف ، ليشق مسمعي ، العويل ، و الصرخات الرعناء . اليوم لا أملك سوى الذكرى ، اليوم أعود عند الغروب منكسرا ، أيمم نحو مدينة كئيبة تغفو مجهدة، لتنكمش على أحزانها الدائمة.

****

طاميزودا : مدينة رومانية ، تقع على بعد عشرة كيلومترات من القنيطرة ، على الضفة اليسرى لنهر سبو، غرب المغرب .

السيرة الذاتية لإدريس الصغير

أديب مغربي من مواليد ٢١ ماي ١٩٤٨ بمدينة القنيطرة
كاتب فرع اتحاد كتاب المغرب بالقنيطرة

صدر له:

"اللعنة و الكلمات الزرقاء"﴿مجموعة قصصية﴾، بالاشتراك مع عبد الرحيم مودن، ١٩٧٦
"الزمن المقيت"، ﴿رواية﴾، ١٩٨٣
"عن الأطفال و الوطن"، ﴿مجموعة قصصية﴾ ١٩٨٥
"وجوه مفزعة في شارع مرعب"، ﴿مجموعة قصصية﴾، ١٩٨٥
"كونشيرتو النهر العظيم"، ﴿رواية﴾، ١٩٩٠
"أحلام الفراشات الجميلة"، ﴿مسرحية﴾، ١٩٩٥
"ميناء الحظ الأخير"،﴿رواية﴾، بالاشتراك مع عبد الحميد الغرباوي ١٩٩٥
"معالي الوزير"، ﴿مجموعة قصصية﴾، ١٩٩٩

الباب الثاني:

باب محمد سعيد الريحاني

	النصوص القصصية
	النص الأول: في رحاب التقنية
	النص الثاني: هَلْ قَرَأتَ يَوْماً عَن الأَشْبَاحِ؟
	النص الثالث: الضياع
	النص الرابع: فضاضة القبائل البعيدة؟
	النص الخامس: الاسم "عاطل" والمهنة "بدون"
	النص السادس: الذي كان حرّا
	النص السابع: أحلام الظهيرة
	سيرة ذاتية للقاص محمد سعيد الريحاني

في رحاب التقنية

"يختلف العلم سواء في سعيه نحو غايته أو في مبدئه عن بادئ الرأي اختلافا مطلقا... إن الفكر العلمي يمنعنا من أن نكون آراء تبدو لنا حول قضايا لا نفهمها، ومسائل لم نصغها صياغة واضحة. ينبغي أولا وقبل كل شيء معرفة طرح المسائل، ومهما قيل فإن المسائل في الحياة العلمية لا تطرح نفسها. وهدا الحس بالضبط، حس طرح المسائل والشعور بها، هو الذي يشكل الصفة الأساسية للفكر العلمي الصحيح. فعند هذا الفكر تكون كل معرفة جوابا عن سؤال، ولولا السؤال لما كانت هناك معرفة علمية. فلا شيء من تلقاء ذاته ولا شيء يعطى وكل شيء يبنى ويشيد."

غاستون باشلار

"تكوين العقل العلمي"

أطل الجابي برأسه من نافذة الحافلة على المسافر الذي نزل فجأة إلى الشباك البنكي على الرصيف، قائلا :

- يا سيدي، لدينا خمسين راكبا على متن الحافلة وهم يصرخون في وجه السائق ويطالبونه باستئناف السفر .

أجابه المسافر على الأرض هو يدخل بطاقته البنكية في شق الشباك الآلي:

- لحظة من فضلك، سيدي. سآخذ نصيبا من المال أنا بأمس الحاجة إليه قبل محطة الوصول النهائي للحافلة. مجرد دقيقة. دقيقة واحدة. الأمر سيتم بمنتهى السرعة. نحن، سيدي، في زمن السرعة، زمن التقنية، زمن خدمة الإنسان.

الجابي، غاضبا :

- يا سيدي، لقد توقفنا عند هذا الرصيف أكثر من اللازم. إن كنت تريد مواصلة السفر معنا فمرحبا. وإن كنت تفضل البقاء هنالك، فاسحب أمتعتك من الصندوق، من فضلك.

المسافر، مهادنا :

- مهلا، سيدي. أنا لدي تذكرتي ثم إنني معكم منذ بداية الرحلة...

الجابي، صارخا:

- حسنا. إذا كانت لديك تذكرة فأقرأ فيها أخطاءك: **"من تأخر عن موعد السفر لا تقبل منه شكاية".**

ثم أدخل الجابي رأسه وهو يطلب من السائق الانطلاق :

- رول، آلشيفور. روووول!...

ثم غابت الحافلة تاركة وراءها زوبعة من الدخان والغبار تعتم على وجهة سفر الأمتعة في صندوق الحافلة. حتى حين رسا الغبار، كان الشباك الآلي لا يزال يقرأ شفرة البطاقة ويحاول التعرف على صاحبها ورصيدها... أزيز الشباك يبشر ببداية العملية الآن.

أخيرا، هاهي الزجاجة الواقية تنجلي عن مفاتيح الأرقام! وهاهي الشاشة ترحب بي بلباقة ظاهرة وتطلب مني إدخال قني الشخصي.

أدخلت قني الشخصي!

أنتظر.

الشباك بدوره ينتظر . نتناظر وننتظر، أنا وإياه.

أخيرا، عاد الأزيز ليوقظ في الاستعداد لتركيب أرقام المبلغ. الأزيز يطول والشاشة مازالت تظهر الترحيب السابق وقني الشخصي والليل يزحف فوقي باتجاه الغرب....

التعب بدأ يدب إلى ركبتَيَ ووركي.

أخيرا، تظهر على الشاشة علبة حوار تطلب مني تركيب المبلغ المراد سحبه من الشباك الأوتوماتيكي. ركبت المبلغ وصادقت عليه بالضغط على زر **"موافق"** ثم بدأت انتظر.

الشباك، غير مستعجل، ينتظر هو كذلك.

نقف، أنا وإياه، متواجهين، نتناظر وننتظر.

يعود الأزيز مرة أخرى. افرك يدي استعداد لتسلم المبلغ وعد الأوراق المالية. افرك يدي. افركها. يتوقف الأزيز فجأة. تظهر علبة حوار جديدة. اقتربت منها لقراءتها:

" زبوننا العزيز. الشباك غير جاهز مؤقتا. شكرا على تفهمكم."

هل تعطل الشباك؟!

والبطاقة الالكترونية ؟!

هل احتفظ بها؟!

والمبلغ المالي المطلوب؟!

أنا مجرد زائر من مدينة بعيدة، والليل أسدل ستائره على الكون ولن يكون بإمكاني مغادرة الشباك لأي سبب أو غرض. من يدري ؟! فقد يعود الشباك الآلي للعمل في لحظة من فترة غيابي فيخرج بطاقتي والمبلغ المالي. ومن يدري؟! فقد تمتد إليها أصابع طائشة وتسحبها...

اسودت الشاشة بالكامل وانطفأت أزرار الشباك جميعا وانتقل الأزيز من الشباك إلى دماغي.

أحس بالدوار.

طلبت كرسيا من نادل المقهى المجاور. احضره له لي في رمشة عين ووضع لي مائدة اتكئ عليها ثم اقترب مني عارضا خدمة. طلبت قهوة مضغوطة، استعداد للسمر. ومن يدري ؟! قد يعود الشباك للعمل بعد منتصف الليل وعلي ،آنذاك، أن أكون يقظا.

رشفت من قهوتي السوداء. فتحت عيني : المدينة تدور بي، أضواء السيارات تعميني. الصداع، الصداع... أي مدينة هذه ؟ يجب أن أسأل النادل. ناديته:

- نادل !

أوه ! لكني لست راكبا في حافلة أو سيارة. إنني على الأرض. والسؤال عن اسم المدينة قد يجعل مني إنسانا أحمقا في عين النادل وقد يفقدني احترامه...

انحنى النادل على مائدتي بيديه خلف ظهره :

-أمرك، سيدي ؟

حولت الطلبية إلى كوب ماء.

- كوب ماء، من فضلك.

احضر لي الكوب وانصرف.

سأتعرف على اسم المدينة من خلال أرقام تسجيل السيارات.فأرقام التسجيل الغالبة ستكون هي أرقام تسجيل هذه المدينة: السيارات تمرق أمامي يمينا ويسارا بأرقام تسجيل لا تتكرر. واستخلصت أن هذه مدينة عابرة لزوار عابرين وأحسست ثانية بالدوار ولم أصح إلا على صوت النادل وهو يطلب مني الأداء:

- عذرا، سيدي. سنقفل المقهى !

أحسست فجأة أنني سأبقى وحيدا في الظلام، هنا، بجانب الشباك. فقلت له :

- والشباك ؟

أجاب، متعجبا:

- الشباك تابع للوكالة البنكية ونحن تابعين في عملنا للمقهى!....

أدركت مدى سذاجة سؤالي. فحيثما كان الجواب بليدا كان السؤال قبله أبلد.

أديت قهوتي ونهضت من مكاني لأفسح له المجال لجمع الكراسي والموائد. وقفت قرب الشباك الآلي ، برجل مسندة على الحائط ويدين متصالبتين على صدري، انتظر انتقال الأزيز من دماغي إلى الشباك.

- "السلام عليكم !"

انتفضت من مكاني وأحسست للتو أنني كنت نائما وقوفا. فرددت التحية بأحسن منها، في ظل إحساسي بالوحدة في ظلام مدينة غريبة. لكن الرجل اقترب مني بكلبه وهراوته، قائلا:

- ابتعد قليلا من هنا، من فضلك!

حكيت له قصتي. حتى إذا ما انتهيت قال :

- ولكن إلى متى ستظل هنا حارسا ثانيا على الشباك ؟

أجبته :

- حتى الثامنة من صباح الغد حين تشرع الوكالة بابها للزبناء فأفاتح مديرها في الأمر. ليس لدي ما اخسره بعد الذي حصل.

تأملني الحارس قليلا تم قال وهو يجر كلبه، مبتعدا :

- إذا لم يكن لديك ما يخسره في الأيام الأربعة المقبلة فلسوف تحصل على حقك...

أيقظتني أعداده ، فقلت له :

- أنا هنا انتظر صباح الغد. لماذا انتظار أربعة أيام؟!

رد الحارس بعدما عبر الشارع واطمأن أنه على الرصيف الآخر :

- غدا سينظم مستخدمو الوكالة وقفة احتجاجية في نفس المكان الذي تقف فيه الآن. وقد تتدخل قوات الأمن بالعصي وتشملك معهم ...

قاطعته محاولا التمسك ببريق أمل هارب :

- إذن، بعد غد...

أجاب الحارس، ساخرا :

- السبت والأحد يسميهما العالم "عطلة نهاية الأسبوع"!

الدوار يعاودني. النجوم الجوفاء في السماء تحيل الكون كله إلى لوحة **لفان غوخ**. الدوار في هذه المدينة قانون. الآن فقط أعرف اسم هذه المدينة: "**بيرمودا**".

هَلْ قَرَأْتَ يَوْماً عَنِ الأَشْبَاحِ؟

"هذه قصتي إلى كل من يود أن يعرف كيف صرت مجنونا: في قديم الأيام قبل ميلاد كثيرين من الآلهة نهضت من نوم عميق فوجدت أن جميع براقعي قد سرقت (...). وعندما بلغت ساحة المدينة إذا بفتى قد انتصب على أحد السطوح وصرخ قائلا: ""إن هذا الرجل مجنون، أيها الناس"". وما أن رفعت نظري لأراه حتى قبّلت الشمس وجهي العاري لأول مرة. لأول مرة قبلت الشمس وجهي العاري فالتهبت نفسي بمحبة الشمس ولم أعد بحاجة لبراقعي. وكأنما أنا في غيبوبة صرخت قائلا: ""مباركون مباركون أولئك اللصوص الذين سرقوا براقعي"""

جبران خليل جبران

نص **"كيف صرت مجنونا"**، عن كتابه **"المجنون"**

من الوثائق اللازمة لعقد القران، بطاقة هوية **"بيومترية"**. وعليه، فقد صار لزاما علي تجديد النسخة المتقادمة من بطاقة هويتي في أقرب الآجال ليس فقط لضمان الظفر بامرأة العمر بل أيضا للنجاة بجلدي. فالتلفاز، منذ الصباح حتى المساء، لا يكف عن إذاعة الوعد والوعيد والتهديد تلو التهديد لكل من تهاون في تجديد بطاقة هويته:

- من لا يتوفر على بطاقة **"بيومترية"** سيتعرض، ابتداء من فاتح يناير القادم، لغرامة تصل إلى ألف درهم عند كل مرة لا يدلي بها للشرطي الذي سيطلبها منه. كما أن جوازات السفر وباقي الوثائق الإدارية لن تُسلّم إلا لمن يتوفر على هذه الوثيقة الهامة لكل المواطنين البالغين.

هرج ومرج في البلد وتَدَافُعٌ لدى مخافر الشرطة واستوديوهات المُصَوّرين ومُقاطعات الحالة المدنية ووكالات الفوتوكوبي...

سألت عن لوازم تجديد البطاقة **"البيومترية"** فكان الجواب:

- تاريخ الازدياد وصورتان فوتوغرافيتان وشهادة سكنى ونسخة مصادق عليها من البطاقة الوطنية...

اعتقدت أن جمْعَ وثائق بسيطة كهذه سيتطلب مني يوما أو بعض يوم لكن مُنبهاً نَبهني إلى حسابات مغايرة تنتظرني وتنبني جميعها على رياضيات مغايرة:

- سيتطلب منك تاريخ الازدياد يومان من التردّد على مكتب الحالة المدنية: اليوم الأول لدفع الطلب واليوم الثاني لتسلم الوثيقة. وحين تتوصل بالنسخ المطلوبة من تاريخ ازديادك ستدفعها بمعية لوازم أخرى للحصول على شهادة السكنى. وستتطلب منك شهادة السكنى، هي الأخرى، يومان من الوقوف على عتبات المقاطعة الحضرية: يوم تدفع فيه الطلب ويوم آخر تتسلم فيه الوثيقة. وحين تتوصل بالنسخة المطلوبة من شهادة سكناك، آنذاك عليك

الذهاب إلى مخفر الشرطة لدفع اللوازم ورَسْم البصمات لكن الأمر هناك سيتطلب منك أيضا يومان: اليوم الأول للتسجيل في لائحة المواطنين المترشحين لإيداع الوثائق ويصل عددهم إلى المئات ممن قدموا للمركز مباشرة بعد صلاة الفجر وسجلوا أسماءهم على القائمة وهم يعلمون بأنهم يتسجلون لليوم الموالي... وبعد كل ذلك، يبدأ انتظار الحصول على البطاقة الوطنية "**البيومترية**" الذي قد يصل إلى شهرين أو أكثر. أما إذا كنت، بعد وضع اليد على البطاقة الوطنية "**البيومترية**"، تريد الحصول على جواز سفر "**بيومتريّ**" فيمكنك المرور عبر نفس قن المسار وانتظار نفس المدة لتسلم الوثيقة من السلطات...

أصابني كلام المتكلم بالدوخة لكنني تسلحت بالعزيمة وبكناش الحالة المدنية وقصدت الإدارة المعنية بأمر تواريخ الازدياد وبدأت انتظر فتح الباب في الوقت الذي يفترض فيه أن يكون أحد الأعوان بادئا استعداده لإغلاقها مادامت الساعة كانت تشير إلى الثالثة زوالا.

كنت الوحيد الواقف أمام الباب المسدود للإدارة التي يبدو ألا أحد يزورها أو يعمل داخلها. شيء واحد طمأنني بأن هذه المؤسسة ليست مهجورة وهو عدم وجود شباك عناكب على زوايا نوافذها وأبوابها. لذلك، قررت الصمود على عتبة الباب وانتظار فتح الباب ليقيني بأنني سأكون أول المواطنين في دفع الطلب وربما في اختصار الوقت فأنال وثيقة تاريخ ازديادي في نفس اليوم إذ لن يكون ثمة داع للانتظار حتى يوم الغد.

طال الانتظار ونفذ صبري.

سألت أحد المارة عن توقيت عمل الإدارة فأجابني بأن نقابة موظفي القطاع تضرب اليوم الاثنين عن العمل.

اندهشت للخبر وللوقت الطويل الذي أضعته واقفا أنتظر اللاشيء.

انسحبت، أخيرا.

في اليوم الموالي، الثلاثاء، كنت أول مواطن يقف على عتبة الإدارة المسدودة. ظللت أنتظر حتى أشفق عليّ سائق سيارة أجرة إذ قال لي من وراء المِقْود داخل عربته:
- الموظفون في إضراب قطاعي لمدة ثلاثة أيام.

صُدمت للخبر ولكن لم يكن بقربي حتى من يشاركني الاحتجاج أو الشكوى فأجلت لطم رأسي مع الحائط وانصرفت.

في الأسبوع المقبل، رجعت وظللت أنتظر لكن لا أحد فتح الباب لا صباحا ولا مساء. قصدت دُكاناً مجاوراً وسألته عن سبب غلق باب الإدارة فأجابني بأن الموظفين في إضراب قطاعي لكنني، تحت ضغط الانفعال، قاطعته:
- بالله عليك، قل لي متى لا يضربون؟

لم يفهم الرجل السؤال فغيرت العبارة:
- في أي يوم لا يكون الموظفون مضربين؟

فأجابني بعفوية ظاهرة:
- يومي الخميس والجمعة.

قالها وانصرف عني لخدمة زبون دخل الدكان للتو.

عدت صباح يوم الخميس إلى مكتب الحالة المدنية وكم كانت سعادتي بالغة لما رأيت من البعيد باب الإدارة مشرعا. كانت سعادة غامرة لا توازيها إلا سعادة من رآى باب السماء يفتح في ليلة القدر فيطلب ما يريد ويلبى له طلبه في الحال. لكن الموظف الذي تسلم مني كناش الحالة المدنية وثمن النسخ المطلوبة من تواريخ الازدياد أخبرني بالعودة مُجدّداً في اليوم الموالي، الجمعة، لأن رئيسه الذي سيوقع الوثائق يحضر اجتماعا...

رجعت في اليوم الموالي، الجمعة، لكنني لم أجد الموظف الذي أودعته كناش الحالة المدنية فقد علمت من الموظف البديل الجالس في نفس الكرسي من نفس الشباك بأنه خرج في إجازة سنوية. كما علمت بأن رئيسه الذي كان أمس في اجتماع خرج قبل قليل لأداء صلاة الجمعة وأنه لن يرجع إلى الإدارة بعد تفرّق الصلاة وبأنه عليّ مُجَدّداً العودة يوم الاثنين...

يوم الاثنين صباحا، لدى عودتي، وجدت باب الإدارة مغلقا وتذكرت بأن الموظفين، طيلة السنة، يضربون عن العمل أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء. عدت أدراجي هذه المرة طواعية فقد بدأت أعرف الأسباب التي يفتح من أجلها الموظفون باب الإدارة والأسباب التي من أجلها يغلقونها.

عدت صباح يوم الخميس لكن الموظف فاجأني وهو يتصفح أكوام كنانيش الحالة المدنية قائلا:
- ليس لدي كناش حالة مدنية يحمل اسمك. هل أنت متأكد بأنك وضعته لديّ؟

أجبته مؤكدا لكنه حرك قطعة تشكيك ثانية:
- ربما سحبه أحد من أفراد عائلتك دون مشورتك أو ربما طلبت منه أنتَ ذلك ونسيت؟

صُعِقْتُ لسماع كلام الموظف.

لم أبعث أحدا لسحب وثائقي من المكتب كما أنني وضعت الكناش بيدي على مكتب الموظف الذي خرج في إجازة سنوية وأديت الرسوم كاملة من حافظة نقودي ثم إن ذاكرتي لازالت تحتفظ بتاريخ إيداع الطلب بالساعة واليوم والشهر والسنة...

بدأت أصرخ فصدق الموظفون بسرعة صراخي وطلبوا مني إمهالهم أربعا وعشرين ساعة للبحث عن كناش حالتي المدنية في مكتب الرئيس والمكاتب التابعة له فأوقفت صراخي، تحت رَبْتِ الأكفّ على كتفي، ووافقت تجاوبا مع الموظفين الذين خرجوا من شبابيكم لمواساتي وهم يواسون أنفسهم.

في اليوم التالي، الجمعة، كنت أمام باب الإدارة قبل حتى فتحها في الموعد المحفور على خشب الباب. ظللت أنتظر تقاطر الموظفين الذين بدأتُ الآن أعرف أسماءهم ومكاتبهم ومهامهم وسلالمهم ورتبهم...

سألت أحدهم إن كانوا قد وجدوا كناش حالتي المدنية بعد مهلة الأربع والعشرين ساعة فطلب مني بطاقة هويتي كي يختصر الوقت في البحث عنها.

أعطيته البطاقة ووقفت أنتظر حتى وصل مسامعي صوت آذان الظهر فتملكني الرعب من احتمال خروج الرئيس من مكتبه لأداء الصلاة لأنه لن يرجع إلى عمله إلا بعد أسبوع ما دام اليومان المواليان يوافقان يومي السبت والأحد، عطلة نهاية الأسبوع، وبعدهما يبقى الاثنين والثلاثاء والأربعاء أيام إضراب، أما يوم الخميس فيوم اجتماع فيما يبقى صباح الجمعة نصف يوم عمل لغاية صلاة الظهر...

بدأت أصرخ وأبالغ في الصراخ كي يسمعني الرئيس قبل أن يخرج من مكتبه ويرهنني لصباح يوم الجمعة القادم. خرج الموظفون من وراء الشبابيك التي كانت قبل قليل تفصلهم عني وتحلقوا حولي لطمأنتي

بحتمية إيجاد كناش حالتي المدنية متوسلين تسلحي بالقليل من الصّبر وبالعودة يوم الجمعة المقبل لأن الرئيس خرج لأداء الصلاة من الباب الخلفي لما سمع الصّراخ في هذه الجهة من البناية وأقفل وراءه باب مكتبه حيث تتكدس كنانيش الحالة المدنية.

رجعت الجمعة المقبلة وطالبت، بانفعال شديد، بكناش حالتي المدنية فطلبوا مني بطاقة هويتي. أخبرتهم بأنها لديهم فلم يصدقوني.

ترى، كيف يكون لون الإغماء؟
أتراه أصفرا؟
أم أخضرا؟
أم هو توليفة من هذا وذاك؟

ما أذكره هو أنه، بعد سماعي لخبر ضياع بطاقة هويتي هي الأخرى، غشّى الكوْنَ لونٌ أصفرُ الخضرة أو ربما هو أخضر الصّفرة. وعلى غشائي الطبلي، أبطل الأزيز باقي الأصوات رغم أنني كنت أسمع بصعوبة صوتي وهو يسأل:
- هل أضعتم بطاقة هويتي أيضا؟

وفي أوج الخُدْر الغريب الذي يتملكني ويبطل حواسي الواحدة تلو الأخرى، كانت ثمة دبدبات صوتية لبورتريه وجه غير مكتمل تطفو في الأثير مهددة:
- احترم نفسك!
- أنت الآن في إدارة عمومية!
- هل الإدارة تضيع الوثائق؟
- زِنْ كلامك!...

قرب فراشي في بيت عائلتها، تفرغت خطيبتي لإنزال درجة الحمى في جسدي إلى مستوياتها العادية. وحين رمقتني أرمش من جديد، قالت مازحة:
- أرأيت؟ هناك دائما فرصة للحياة إذ يمكن للمرء أن يحيا ولو بدون وثائق ثبوتية!...

ثم، مازحة:
- نعم، يحيا المرء بلا وثائق ولكنه يمر إلى الجهة الأخرى من الحياة للانتماء إلى الصنف الثاني من الأحياء!

ولتخفيف اضطرابي، قالت:
- هَلْ قرَأت يَوْماً عَن الأشْبَاحِ؟

ولما لم أجبها، واصلت تَنَدّرَهَا بي:
- لقد صرت منهم، يا سيد "**شبح**"!

جَمَعْتُ الجهد الكافي لتركيب جملة مفيدة وقلت لها مُتَنَهّداً، قبل أن أنهض من الفراش وأغادر المكان وأهجر آدميتي:
- نعم، لقد صرت الآن السيد "**شبح**" تماما كما ستصبحين أنْتِ بعد قليل أول من يفقد النظر إلي والاتصال بي!...

الضَّيَاعُ

"عندما تركنا، بعد ثلاثة أيام، لم نشعر أن ضيفا رحل عنا، بل واحدا منا لا يزال خارج المنزل في الحديقة، ولما يدخل".

جبران خليل جبران

نص **"التائه"**، عن كتابه **"التائه"**

١ـ مساء الخير!
٢ـ مساء الخير!
١ـ هل يمكنك مساعدتي؟
٢ـ في ماذا؟
١ـ كما ترى، حل بسيارتي عطب مفاجئ ألزمني التوقف نهائيا هنا على قارعة الطريق...
٢ـ وما المطلوب مني؟!
١ـ هل هناك ورشة لإصلاح السيارات يمكنني الاستعانة بها؟
٢ـ هنا، لا. لكن ثمة ورشات في المدينة المجاورة...
١ـ هل ثمة وسائل نقل تعبر عبر هذه الطريق؟
٢ـ طبعا. هذا طريق مشغول.
١ـ لم ألحظ ولا وسيلة نقل منذ وقفت هنا!
٢ـ وسائل النقل متوفرة، يا سيدي.
١ـ يبدو أنك تنتظر وسيلة نقل، أنت كذلك؟
٢ـ نعم.
١ـ منذ متى وأنت تنظر؟
٢ـ منذ الصباح.
١ـ إذن، ليس ثمة وسائل نقل؟
٢ـ لا، سيكون هناك وسائل نقل. لسنا في عجلة من أمرنا.
١ـ ولكن الوقت يضيع!
٢ـ لماذا يضيع الوقت؟
١ـ لأننا لا نفعل أي شيء: نحن فقط ننتظر!
٢ـ هل بمجرد الانتظار، يضيع الوقت؟
١ـ قل لي: ماذا تفعل في حياتك؟
٢ـماذا سأفعل؟
١ـ هل تنتظر مني أن أريك ما الذي يتوجب عليك فعله؟

٢- هنا، ليس ثمة شيء يمكن فعله.
١- هل تقصد بأنك لا تفعل أي شيء على الإطلاق؟
٢- ماذا سأفعل؟ أريني ما الذي يمكنني فعله هنا؟
١- لا يمكنني ذلك الآن وقد حل الظلام على المكان. حل الليل ولا من وسيلة نقل تنير مصابيحها الأفق!..
٢- لا بد من وسائل النقل. لا بد...
١- ولكن الظلام الآن حالك ولا مكان لي هنا أقضي فيه ليلتي كما ستفعل أنت رُبّما!
٢- لا خوف عليك ولا هم يحزنون. المكان هنا آمن. لا وحوش ضارية ولا قطاع طرق ولا أي خطر... يمكنك أن تنام على الثرى متوسدا ذراعك وملتحفا السماء وأن تبدأ في عدّ النجوم ريثما يغالب النوم جفنيك...
١- وأنت؟
٢- أنا ذاهب إلى بيتي وسأؤجل سفري إلى الغد. سأعود غدا باكرا وسأنتظر...
١- وأنا؟
١- هل لديك عنوان يمكنك قصده وقضاء ليلتك به في انتظار صباح الغد؟
٢- لا.
٢- وهذا هو المهم!
١- ما هو المهم؟
٢- "**ماذا تفعل؟**" سؤال عمره قصير ينتهي بحلول الليل. أما المهم فهو أن يكون لديك عنوان يؤويك استعدادا لانتظار جديد في غد جديد. مع السلامة!
١- والضيافة، أليست من شيم أهالي هذه المنطقة؟
٢- ضيافة من؟
١- ضيافة الغرباء من عابري سبيل...
٢- عابر سبيل ليس بالضرورة عابر بيتي.
١- طبعا، ليست واجبا ولكنها مجرد مساعدة متداولة في أنحاء العالم.
٢- هذه الأرض ليست من العالم الذي تتحدث عنه في شيء. هنا يولد الناس أفرادا ويموتون أفرادا لكن ربما جادت عليهم الكوارث بين الفينة والأخرى بشرف الدفن الجماعي في قبور جماعية!

فظاظة القبائل البعيدة

"خرج الثعلب من مأواه عند الشروق، فتطلع إلى ظله منذهلا وقال: '''سأتغذى اليوم جملا'''. ثم مضى في سبيله يفتش عن الجمال الصباح كله. وعند الظهيرة، تفرس في ظله ثانية وقال مندهشا: '''بل إن فأرة واحدة تكفيني''''".

جبران خليل جبران

نص **"الثعلب"**، عن كتابه **"المجنون"**

في الحمّام العمومي، لم يُمْهل الانزعاج الشديد الشيْخَ ضعيف البصر فانفجر صارخا في وجه الشاب الفظ الجالس إلى جانبه:
- ما هذه الفظاظة؟ يا لسوء الأدب! لقد جرت الهجرة الجماعية إلى هذه المدينة كل الأزبال البشرية والشوائب الآدمية التي كانت عالقة منذ آلاف السنين في الأرياف والأدغال في البعيد البعيد، هناك في القبائل البدوية النائية.

ولما لم يبد الشاب أي رد فعل، عاد الشيخ ليصعد من لهجته:
- هل أنت من قبيلة **بني شماتة**؟ هذه أخلاق **بني شماتة** الرّعاع الذين لا يميزون بين الحظيرة والمدينة!...

أجابه الشاب ببرودة دم تَشِي بتواطؤ غير مُبرّر:
- **بني شماتة** هم مجرد بغال وحمير، أيها الوالد!

فصحح الشيخ هجومه وعاد من جديد صارخا:
- إن لم يكن سلوكك سليل فظاظة **بني شماتة** البغال والحمير فهو سليل خسة **بني كَلْبُون** الجراء القذرين!

وافقه الشاب مومئا برأسه:
- **بني كَلْبُون** هم مجرد خنازير نجسة وجراء وسخة، أيها الوالد!

صمت الشيخ هنيهة ثم خفض صوته وعدّل نبرة خطابه اتجاه الشاب فبدا أكثر فضولية وأقل هجومية:
- لقد ظننتك في البداية من **بني شماتة**، البهائم العنيدة، فأنكرت انتسابك إليهم. ثم خلتك من **بني كَلْبُون**، الجراء القذرين، فعدت لتنفي صلتك بهم. بالله عليك، إلى أي قبيلة تنتمي؟

فأجابه الشاب، هامساً:
- أنا أنتمي، طبعا، إلى قبيلتك: **آيت تاحمارت!**

فانتاب الشيخ اهتمام زائد ليعود مُدَققا في جواب الشابّ:
- ومن أي قرية، أنت!

ردّ الشاب، مُوَشْوِشاً:
- طبيعي أن أكون من قريتك، **أغيول!**

توتر الشيخ أكثر وهو يضيق الدائرة عليه وعلى مخاطبه:
- وإلى من تنتسب؟!

فأجابه الشاب، مُغَمْغِماً:
- أنا ابنك البكر، يا والدي العزيز!

الاسم "عاطل" والمهنة "بدون"

"لكل شخص الحق في الراحة ووقت الفراغ، ويشمل ذلك تحديدا معقولا لساعات العمل وعطلات دورية مدفوعة الأجر."

الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، المادة ٢٤

هو قدري أن أكون عاطلا وأمضي حياتي على كراسي هذه المقهى البئيسة في انتظار من يقاسمونني نفس المصير لنتحدث عن أي شيء يبعدنا عن التفكير في الانتحار.

منذ ميلادي، تحدد مصيري. فقد أسماني أبي "**عاطفا**" لكن موظف الحالة المدنية استبدل **فائي لاما** وسماني رسميا "**عاطلا** " ونلت بهذا الاسم الشواهد الدنيا والعليا ودخلت المدارس والمعاهد والجامعات وكل المؤسسات التي ولجها أبناء جيلي... لكن المقاهي وحدها كانت الأرحب. ولم أشعر بهذا إلا بعدما تمكن مني التعب والإحباط وخمد فِيَ الحماس إذ رأيت ما يراه الناس في أحلامهم فيهبون مذعورين من فراشهم،مرعوبين من حقيقة ما كانوا دائما يحاولون إخفاءه. فقد رأيت أنني أحمل قدري في "**اسْمِي**"...

- السلام عليكم ! أين بقية الأصدقاء ؟
- لم يحضروا بعد. اجلس.
- سأفعل. أنا أصلا جئت لأجلس.

ثم جلس وبدأ كعادته بالشكوى من كليتيه والحديث عن أسباب الورم وأشكال الوقاية والعلاج منه: "أورام الكلي سببها الحصى في الطعام والبرودة في المرقد والجلوس الطويل "... وإذا صدق تعليل صديقي لأسباب هذا المرض، فلربما كانت أمراض الكلي هي مرض البلاد. ربما كل الناس مرضى بالكلي. قد تتفادى الحصى في طعامك والبرودة في مرقدك لكنك لن تستطيع الإفلات من الجلوس الطويل، الطويل في المقاهي الرحبة. فكل أيام الله أيامك. ليس ثمة شغل يصرفك عن قضم أظافرك وفرقعة مفاصل أصابعك على مدار الساعة... كل أيام الله أيامك وكل مقاعد المقاهي تتسع لمؤخرتك وكل خدم المقاهي يعرفونك...

- السلام عليكم! ألم يحضر الإخوان بعد ؟
- سيحضرون. ضروري. تفضل.

- سأجلس. هل من بديل عن الجلوس ؟!

هذا الصديق هو أخ نادل هذا المقهى. لكننا نحن رواد مقاهي معروفين لدى كل النادلين. وهم، جميعهم، طوروا اتجاهنا معاملة ثابتة. فلا أحد منهم يرغمك على طلب مشروب ما إذا تجاهلتهم وتفاديت النظر إليهم وهم يمسحون مائدتك ويرتبون الكراسي في صخب حولها. لا احد منهم، آنذاك، يجرؤ على الحديث معك لأنهم يعلمون أنك، حين تصادف نظراتكما قطع نقدية في جيبك،فإنك تكون البادئ في النظر. بل البادئ في الابتسام. وأحيانا قد تنهض وتخطو نحوه لمصافحة حارة وتطلب قهوة سادة. وعند الأداء، تضيف للثمن بقشيشا لشراء الأمان منه حين لا تطلب شيئا، في المستقبل.

- السلام عليكم! الآخرون دائما متأخرون؟!

- سيحضرون. هذا هو مقرهم.

- طبيعي. هل لهم من اتجاه آخر؟!

طلبت من النادل مسح الدوائر البنية التي يتركها كوب قهوتي على المائدة. انحنى على المائدة في لباقة. مسحها ثم احضر كوب ماء. باقي الأصدقاء يتسمرون في مكانهم كلما اقترب النادل من المائدة. يحمرون خجلا. يخفون توترهم بالتناوب على كوب القهوة الوحيد على المائدة في رسالة واضحة للنادل على أن كوب قهوة واحد يكفي.كل الأصدقاء يتحولون إلى أشخاص اجتماعيين يحكون ويناقشون ويتندرون حتى إذا ما انسحب النادل عادوا إلى عزلتهم وصمتهم.

- السلام عليكم!

- إلى أين أنت ذاهب ؟

- إلى حالي.

- ألن تنتظر قدوم بقية الأصدقاء؟!

- سنلتقي غدا. أيام الله كلها أيامنا.

- حسنا. مع السلامة، يا عاطل !

الذِي كانَ حُرّاً

"عندما يضطر الأمير إلى سلب إنسان حياته، عليه أن يتوخى المبرر الصالح والسبب الواضح لدلك، ولكن عليه قبل كل شيء أن يمتنع عن سلب الآخرين ممتلكاتهم، إذ من الأسهل على الإنسان، أن ينسى وفاة والده، من أن ينسى ضياع ارثه وممتلكاته. ويضاف إلى هدا أن المبررات لمصادرة الممتلكات، متوفرة دائما. وكل من يبدأ في الحياة على النهب والسلب، يجد مبررا لسلب الآخرين ما يملكون، بينما أسباب القضاء على حياتهم أكثر ندرة وأسرع زوالا."

"الأمير"، لنيقوللو ماكيافيلي
ترجمة د.فاروق سعد، ص: ١٤٥

وجدت نفسي أمد يدي للمصافحة وأنا أبتسم لهذا الوجه المنبعث من أعماق ذاكرتي:

- تصور نلتقي أخيرا...في مخفر شرطة؟ !

يدي ممدودة في الهواء...

أتراه لم يعرفني ؟!

أتراه يتحفظ ؟!

لماذا؟!

أخوفا من رجال الأمن الذين يعبرون الممر بلا انقطاع متأبطين الملفات والمتهمين ؟...

يدي، دائما، ممدودة في الهواء...

بادلت المصافحة المعلقة بربتة على كتفه، قائلا :

- الأيام مرت بسرعة...

ثم :

- جئت هنا لطلب شهادة حسن السلوك...

ولا تأثير...

- ألا زلت تكتب الشعر؟

ولا كلمة....

كان صاحب أجمل صوت أيام الثانوية:

- لعلك تفرغت للغناء...

لم يكن أبدا باردا لهذا الحد...

كان ممثلا نشيطا وبارعا يستطيع أداء أكثر من دور في مشهد واحد بأصوات وانفعالات متباينة وكان يؤمن بأن الإنسان الحر هو الذي يستطيع أداء أدواره بإتقان واختيار السلوك المناسب للظرف المناسب كي يكون سيد المواقف التي تفرض عليه...

- والمسرح ؟ ألازلت تمارس...؟

لم أعهده صامتا هكذا..

كان ثرثارا، ساحرا، شيطانا يدخل قلوب الفتيات من آذانهن.

- والنساء، هل...؟

ذوي انفجار آدمي وصليل الأصفاد في كعي مخاطبي و فرقعة الشتائم والسباب فوق رأسي... الجرح الملتئم على فك الرجل فوق رأسي يحتقن دما وحاجباه الكثيفتان تختلطان فوق عينيه الغاضبتين..وأجد نفسي تحت كائن يتحول بضربات فرشاة خفية إلى تشكيلات مخيفة تسحبها من خلف عنق القميص قبضات أهل المكان بعيدا، بعيــــدا إلـــى الظـــلام، حيـــث يغيـــب الرجـــل الحـــر والغـــضب وبقيـــة الكـــلام.

أحلام الظهيرة

"لقد تساءلت فيما مضى عن منشأ الجبال فعرفت أخيرا أنها نهدت من البحار كما تشهد صخورها وجروف ذرواتها فما يبلغ الأعلى مقامه إلا لآنطلاقته من المقام الأدنى."

فريديريك نيتشه،

هكذا تكلم زرادشت

(الترجمة العربية) ص. ١٨٠

العجوز : (مستغربة) : عدت باكرا، اليوم !

الشيخ : لا حطب بعد اليوم...

العجوز : لماذا ؟ !

الشيخ : (يتهالك على الفراش ، متأففا) : الذين أطلقوا الخنازير في الغابة غرسوا البارحة علامات تمنع ولوج الغابة أو استغلالها حفاظا على سلامتنا وسلامة الخنازير... هذا ما قاله حارس الغابة.

ثم أسدل جفنيه للاستمتاع بفرصة القيلولة.

يرتاح...

شفتاه تنفرجان قليلا قليلا. فمه بلا أنياب: مجرد فراغات ونتوءات من لحم يتدلى عند نهايتها حلق قصير بدأ أولى ارتجاجاته على إيقاع الشخير الخجول....

الخط الأحمر :

"**هنا يبدأ الخط الأحمر**"، هكذا قال مالك الغابة وهو يشمشم حواليه بأنفه الأفطس مثل خنزير. يفرك خطمه. الذباب يفترسه. يركل بقوائمه على الأرض. يلوح بذنبه. يحرك جلده لطرد الذباب. يشمشم دائما حواليه.

يرفع خطمه ليخيرني:"**سلامتك أو موتك**" . ثم يستدير ماشيا بثبات. جسمه المترهل يرتج شحما ولحما يتوقف قرب الحظيرة. ويضرب بظلفه الموحلة على جدارها راسما مثلثين. يوقف لي إحدى أذنيه تحذيرا : "**خياران: سلامتك أو موتك** ". ثم يغيب في غياهب الحظيرة.

التحـدي :

الأرض ترتعش تحت قدمي على إيقاع الخنزير الهائج ورائي. أرمي الفأس من يدي. وأركض. الهدير لا يمهلني. أجري داخل ركام الحطب الذي كومته. داخل الأعشاب المتوحشة. أجري. الأرض تهتز تحت قدمي. زعيق الخنزير الغاضب يلاحقني. أجري. أراوغ الأشجار التي تعترض سبيلي. الأرض ترتج أكثر فأكثر. الأرض تتشقق .تتصدع. تنفلق. تبتلع الزهور والأشواك. أقفز قبل أن تبتلعني. أطير نحو شجرة قريبة. أتسلق جذعها. الزلزال شديد في الأسفل. الأشجار تتساقط واحدة واحدة. الزلزال الآن يساوم شجرتي. رجاته في عظامي. أتعلق بغيمة تائهة. اقفز إلى بياضها وأرتاااااح...

الأعالـي :

" مرحبا بكم في عالمنا "، حروف بيضاء على لوحة عالية وسط هذه المقبرة اللانهائية حيث تتجول الخنازير بهدوء وسكينة وتتبول على القبور بلا مبالاة. القبور ترتج سخطا. اللعنات المخنوقة تسمع هنا وهناك تحت الأرض. هدير السخط يتصاعد تحت القبور...

الهدير

الهدير

الهدير

ينفجر القبر الأول. تنتصب داخله جثة غاضبة. ينفجر القبر الثاني. الثالث. العاشر. الألف... تثور ثائرة الموتى. يقفزون جميعا خارج لحودهم. ينحنحون توقف الخنازير بولها على القبور. تتراجع خائفة. تفر. تتناطح في فرارها من هيجان الموتى وإيقاع الشعر :

ركبت على القصر صبتو خال كيصفر

وسبـب خـلاه جـاي من صرصـر

الصوت الشاعري المأزوم يستقطب الأموات جميعا. الجثث تتحلق حول الشاعر على قمة جبل صرصر. الشعر يسحر موتى العصور ويعبث بألوان النهر الخالد، وادي المخازن. مياهه شفافة ؟ برتقالية ؟ حمراء ؟

قانـية ؟ ســـوداء؟... النهر يمتلئ سوادا. يمتلئ. يمتلئ. سطح الماء يداعب حاشية السد المنيع. الجثث على قمة صرصر تنتظر الانفجار الأعظم. تعد بجنون للطوفان الأخير :

سبعة...

ستة...

تلوح بالأيادي والقمصان تهليلا للإرادة الإلهية :

خمسة...

أربعة...

تعد بهستيريا لتشذيب الكون :

ثلاثة...

اثنان...

واحد...

بوووووووم!

ويتدفـق

اللعـاب

خاثـرا، بطيئا علـى خـد الغارق في النوم والـشـخير الرتيـــــب.

السيرة الذاتية لمحمد سعيد الريحاني

محمد سعيد الريحاني كاتب ومترجم وباحث في الفن والأدب من مواليد ٢٣ ديسمبر ١٩٦٨، عضو هيأة تحرير "مجلة كتابات إفريقية" الأنغلوفونية ***African Writing Magazine*** والصادرة من مدينة بورنموث ***Bournemouth*** جنوب إنجلترة، عضو اتحاد كتاب المغرب. صدر له: "الاسم المغربي وإرادة التفرد"، دراسة سيميائية للإسم الفردي (٢٠٠١) ، "في انتظار الصباح" ، مجموعة قصصية (٢٠٠٣)، "موسم الهجرة إلى أي مكان" ، مجموعة قصصية (٢٠٠٦)، "الحاءات الثلاث ،" أنطولوجيا القصة المغربية الجديدة (صادرة في ثلاثة أجزاء على ثلاث سنوات ٢٠٠٦ -٢٠٠٧ -٢٠٠٨)، "تاريخ التلاعب بالامتحانات المهنية في المغرب" (صادر في جزأين ٢٠٠٩ -٢٠١١)، "موت المؤلف"، مجموعة قصصية (٢٠١٠)، "حوار جيلين" مجموعة قصصية مشتركة مع إدريس الصغير (٢٠١١).

أشرف على الترجمة الإنجليزية للنصوص القصصية المكونة للقسم المغربي في أنطولوجيا "صوت الأجيال: مختارات من القصة الإفريقية المعاصرة" ***Speaking for the Generations*** التي أعدتها جامعة أوليف هارفيه بولاية تشيكاغو الأمريكية ونشرتها دارا نشر "ريد سيه بريس" و"أفريكا وورلد بريس" في ترنتن بولاية نيو جيرزي الأمريكية، يونيو ٢٠١٠.

كما أشرف على ترجمة خمسين (٥٠) قاصة وقاصا مغربيا إلى اللغة الإنجليزية ضمن أنطولوجيا "الحاءات الثلاث: مختارات من القصة المغربية الجديدة" وهو مشروع ثلاثي الأجزاء صادر في نسخته الورقية العربية على ثلاث سنوات: "أنطولوجيا الحلم المغربي" سنة ٢٠٠٦، "أنطولوجيا الحب" سنة ٢٠٠٧، و"أنطولوجيا الحرية" سنة ٢٠٠٨ تقصد منذ بداياته، تحقيق ثلاث غايات أولها التعريف بالقصة القصيرة المغربية عالميا؛ وثانيها التعبئة بين أوساط المبدعات والمبدعين المغاربة بجعل المغرب يحتل مكانته الأدبية كعاصمة للقصة القصيرة في "المغرب العربي" إلى جانب الجزائر عاصمة الرواية وتونس عاصمة الشعر؛ وثالثها التأسيس لـ"المدرسة الحائية"، "مدرسة" قاعدة للقصة القصيرة الغدوية عبرهدم آخر قلاع العتمة في الإبداع العربي (الحلم والحب والحرية) واعتماد هذه "الحاءات الثلاث" مادة للحكي الغدوي التي بدونها لا يكون الإبداع إبداعا.

له قيد الإعداد للطبع: "٢٠١١، عام الثورة" (مجموعة قصصية)، "وراء كل عظيم أقزام" (مجموعة قصصية)، "خمسون قصة قصيرة جدا"...

www.raihani.ma

الفهرس

باب إدريس الصغير	
النص الأول: رجل، ورقة... وأحلام	
النص الثاني: في مقهى على ضفة نهر	
النص الثالث: طريق الأحلام	
النص الرابع: نومانز لاند / NO-MAN'S-LAND	
النص الخامس: حقول الأقحوان وشقائق النعمان	
النص السادس: صانع الأحلام	
النص السابع: أحلام طاميزودا	
سيرة ذاتية للقاص إدريس الصغير	
باب محمد سعيد الريحاني	
النص الأول: في رحاب التقنية	
النص الثاني: هَلْ قَرَأْتَ يَوْماً عَنِ الأَشْبَاحِ؟	
النص الثالث: الضياع	
النص الرابع: فضاضة القبائل البعيدة؟	
النص الخامس: الاسم "عاطل" والمهنة "بدون"	
النص السادس: الذي كان حرّا	
النص السابع: أحلام الظهيرة	
سيرة ذاتية للقاص محمد سعيد الريحاني	

إدْريس الصّغير

صدر له:

"اللعنة والكلمات الزرقاء" «مجموعة قصص مشتركة مع عبد الرحيم المودن»، دار الخليف، البيضاء، ١٩٧٦.

"الزمن المقيت" رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٣

"عن الأطفال والوطن" قصص المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥

"وجوه مفزعة في شارع مرعب"، قصص المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس. ١٩٨٥

"كونشيرتو النهر العظيم"، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٠.

"أحلام الفراشات الجميلة"، دار البوكيلي القنيطرة، ١٩٩٥.

"ميناء الحظ الأخير" «رواية مشتركة مع عبد الحميد الغرباوي»، دار الثقافة، البيضاء، ١٩٩٥.

"معالي الوزير"، قصص منشورات شراع، طنجة، ١٩٩٩.

مُحَمّد سَعِيد الرَّيْحَانِي

صدر له:

"الاسم المغربي وإرادة التفرد"، دراسة سيميائية للاسم الفردي «٢٠٠١»

"في انتظار الصباح"، مجموعة قصصية «٢٠٠٣»

"موسم الهجرة إلى أي مكان"، مجموعة قصصية «٢٠٠٦»

"الحاءات الثلاث"، أنطولوجيا القصة المغربية الجديدة «صادرة في ثلاثة أجزاء على ثلاث سنوات ٢٠٠٦- ٢٠٠٧- ٢٠٠٨»

"تاريخ التلاعب بالامتحانات المهنية في المغرب"، الجزء الأول «٢٠٠٩»

"موت المؤلف"، مجموعة قصصية «٢٠١٠»

"رسائل إلى وزير التعليم المغربي" «الجزء الثاني من كتاب "تاريخ التلاعب بالامتحانات المهنية في المغرب"»، «٢٠١١»

الثمن: عشرون درهما

مَوْقِعُ رَيْحَانِيَات